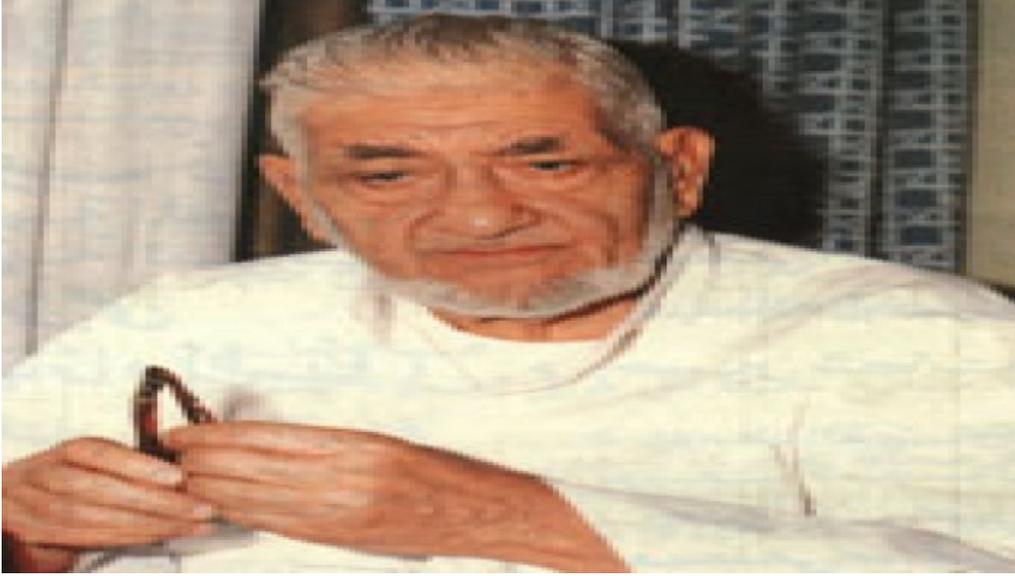


الأستاذ عمر التلمساني يكتب: بعض ما وعيناه عن إمامنا الشهيد



السبت 11 فبراير 2023 09:50 ص

لحكمة لا يعلمها إلا الله وحده، لأنه صاحب الأمر كله وهو منزل الكتاب، ما قرأنا كلمة الإنسان في القرآن، إلا والشر محيط به، والإثم فعله، والجهل صفته، والكفر خلته **(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَلُومٌ كَفَّازٌ (34))** (إبراهيم)، ممعن في الذنب حتى قال الله فيه **(فُئِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17))** (عبس)، **دائم البوار والخسار (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))** (العصر). ولو ترك الأمر هكذا لكان مصير الإنسان، كل الإنسان إلى سفر. ولكن الله بعباده رءوف رحيم، وبخلقه بر كريم، فوضع العلاج الواقى والشافى للإنسان، فإن تناوله نجا، وإن أعرض عنه ضلَّ وُعوى، ولئن كان الدواء المادى وضع للداء المادى، كذلك فإن الدواء المعنوي، الروحاني، الرباني، قد أعدَّ بكل دقةٍ لأمراض النفوس، وعلل القلوب، فمن راض نفسه عليه، وأخلد بكل جوارحه إليه، بلغ المنتهى **(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))** (العصر)، وكما يجد مرضى الأدوية المادية غصاصةً في تناول الدواء المر، كذلك يجد مرضى النفوس المعاناة والمكابرة في التمرس بالدواء الرباني؛ لأنه حرمان للنفس من كل نزواتها الخسيسة، وتطلعاتها الرخيصة، والنفس مولعة بكل ما مُنعت عنه.

بهذا الموضوع، نرى الإنسان في هذا العالم، أصنافًا مصنفةً، وكل ميسر لما خلق له؛ فريق في الجنة وفريق في السعير، فإن كنت صحيحًا بدنيًا وروحًا فاحمد الله أن جعلك من الناجين، وإن كنت غير ذلك، فلا تيأس وحاول، فالمحاولة عبادة، ومقاومة الشيطان عبادة، وجهاد النفس عبادة، وحسن الظن بالله مع العمل أو محاولة العمل عبادة، وهكذا ترى أينما فعلت أو قلت أو تصرفت تتبغى النجاة، فأنت في عبادة متواصلة، والآن إلى الإنسان أنواعًا:

أنواع الناس

إنسان تحلو في عينه المعصية، ويركن إلى النفس الأمارة بالسوء متبعًا هواها، ومتمنيًا من الله الأمانى، دون عملٍ أو رغبة في عمل أو حتى تفكير في عمل، وأوثقه الشيطان بحباله فهو لا يستطيع منه فكًا، واستهوته الدنيا بملذاتها وبهرجها، فركن إليها وطن أن ما لها من فناء، وعثره ماله، وعثره جاهه، وعثره سلطانه، وعثره قوته، فأخلد إلى كل ذلك، غافلاً عن يوم تُوفى فيه كل نفس ما اجترحت ويستجير بكل ما توهمه له مجيرًا، فإذا بالكل يهرب منه صائحًا به إنى اليوم عنك مشغول.. **(وَائْتِلْ عَلَيْهِمْ تَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ**

فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضُ مِنْ الْقَضَايَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177)) (الأعراف)، وما أنعس وما أشقى الإنسان أن يكون مثله كمثل الكلب، (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) (الأعراف: من الآية 179).

وإنسان يمن عليه بكل ما يتمناه، فينساق في طريق الغواية، ويستصحب دعاة الضلالة، ويتمرغ في حمأة الإثم، ويطول به الأمد في الذنوب، ثم تدركه رحمة الله، فيفيق على لحظة، تدركه فيها العناية، فإذا به نائبا مستغفرا راجبا منيبا، فيلقى أبواب الرحمة مفتحة المصاريع وجنات المغفرة واسعة الرحاب، فيغسل أدرانته بماء التوبة الطهور، فإذا به من الناجين (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَيُّبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55)) (الزمر).

هذا الإنسان، بأوبته هذه، يقطع على الشيطان طريقه، ويفسد عليه حباله ويرد كيده إلى نحره ويطرده من حضرته، ويتجنب وساوسه، ولا يخرج ذنبه من إيمانه ولا يبأس من رحمة ربه، فربه كريم، غفور رحيم، ودود كريم، يرضيه أن يعود عبده إليه، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، يمهل ولا يهمل ويفتح ولا يغل، ويجود ولا يبخل، يده سحابة بالعطاء الثجاج، ذي الري واليمن والبركات (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135)) (آل عمران).

فإذا استقر بهم المقام في هذا المقام طالعتهم فيوضات الرضا، وظللتهم سحائب الرحمة وشملتهم أردية الوقاية الربانية فهو على ذكر دائم من ربه، في حصن من مداومة البقاء في حضرته، والتجرد من غفلته، لا تكاد نفسه تهم بمعصية حتى يكفها ذكر الله، ولا يرد الوارد حتى يرده، ولا يجول خاطر برأسه حتى ينكره، ولا يساوره الهم بالمعصية حتى يفت في عضضه أنس الرجاء، ورجفة الخوف من الكبير المتعال، ولا يحاول أن يشرع حتى ينصرف لأنه تذكر فسلم، فأمن فنجأ، (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201)) (الأعراف).

هنالك يعتقد المؤمن مقعد الأمن والسلامة، ويراه الله دائما في رحابه، لانذا بجنابه، محببا في يقينه، خاشعا في ذلته بين يدي العزيز الجبار، فإذا ألف هذه المعاني، وأصبحت داره ومخيمه، وما أنصر ذلك المخيم وما أبهاه!، فإن منازل الأولى يوم أن كان يرتع في رياض الخلد ولا شيء إلا ملائكة الرحمن في غدوه ورواحه، هنالك ينسبه الله إليه، ويحميه من سيطرة الشيطان وسلطانه، ويحييه تقيا نقيًا، صفيًا، وليًا، محببًا نجيا، أليست نسبه حينذاك إلى مالك الملك والملكوت صاحب العزة والجبروت، الذي لا إرادة إلا إرادته، ولا مشيئة إلا مشيئته (إِنَّ عِبَادِيَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) (الحجر: من الآية 42)، إن الشيطان يخافه وبرهه، ويفر منه مرتعدا مذعورا، نعم لقد وصل بعض عباد الله المنتسبين إليه، إلى تلك الدرجات السامية، والمنازل الطاهرة السامية، واستمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ما رأى الشيطان سالكا فجأ إلا فر منه".

أباطيل..

فأين أنت أيها الأخ المسلم من هذا البهاء؟! على مثل هذا الجلال جمعنا إمامنا الشهيد حسن البنا المرشد الأسبق للإخوان المسلمين، في مثل هذه المجالس كان يتخولنا بالنصيحة فيعي القلب، وتهتز العاطفة، وتصفو النفس، وينطلق الأخ المسلم، إلى كل مجالات الحياة عاملا تحفظه نصائح مرشده، وتوجهه تعليماته، فإذا به العامل المخلص النظيف الغد، المتميز الممتاز.

وتحسب أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر

قل لي بربك، هل كان حسن البنا وهذه تعاليمه وتوجيهاته، تعاليمه التي لم يبتدعها من عندياته، ولكنه كان

يسوقها مدعمةً بالآيات، مبرهنًا عليها بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، هل كان يدعو إلى صراعٍ دموي؟ هل كان ينادي بالقطيعة والتفرقة بين الطبقات؟؟ هل يمكن أن نقيم هذه التعاليم عميلًا للاستعمار، أو تعد عميلًا للقصر، أو تهيب خادماً للإقطاع؟؟ ما بال خصوم هذه الدعوة في أباطيلهم مقيمون!!! إنما يؤدي إليه التمسك بدعوة الإخوان المسلمين، والحق والانتصار له، والوقوف إلى جانبه والدفاع عنه، والتضحية في سبيله، فهل يلام أو يتهم أو يقاوم من يتمسك بالحق ويظهره ويدعو إليه **(وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ)** (الكهف:29).

لقد مرّت المحن بالإخوان كالحمةٍ معرّبة، فما زادتهم في دينهم إلا يقينًا، وما زادتهم بدعوتهم إلا تمسكًا واستبسلاً ولماذا تتوالى عليهم المحن؟؟ إنها سنّة الدعوات الصادقة التي لا تُرضى هنا ولا هناك، لماذا لا ينتصرون في كفاحهم؟؟ وهل بعد إقبال الشباب الطاهر على دعوة الإخوان المسلمين، هذا الإقبال المنقطع النظير من نصر وانتصار؟؟! إنما لا ندعو الناس لكي نصل إلى الحكم على أكتافهم، ولا نبصرهم لدينهم لمغرم دنيوي هزيل عن طريقهم، إنما ندعوهم ليقوموا أمةً قويةً عزيزةً طاهرة، وها هم اليوم يأخذون بأطراف الدعوة من كل حدبٍ وصوب فما بالنا لا نحمد الله أن نصل دعوته، ورأينا الناس يدخلون تحت لوائها أفواجًا!!! لماذا لا نحارب من حاربنا، ولا نقابل الشر بالشر، ونتحمل الضربات القاسيات في صبرٍ واحتساب؟

ذلك لأننا لو أردنا شرًا لاستطعنا، فما أيسر تخريب جسرٍ هنا أو قنطرة هناك!!! وما أسهل النسف لمن أراد فسادًا، وما أقرب الاعتبال لمن أراد ضلالًا! إنما لا نلقي الشر بالشر ولا نوّمن بقبول المبطلين إذ يقولون أن تلقي الشر بالشر يتحسن، ولكننا نريد أن نقيم قاعدةً إسلاميةً راسخة، ونريد أن نرى رأياً إسلامياً عارماً، يقول فيُستمع له، ويصمد فينتظر منه القول.. نريد أن نوجد أمة قوية الشأن، عالية المقدار، عزيزة الجانب موحدة الصف، ونريد أن نقيم ذلك كله على أساسٍ من الحكمة المستبصرة والموعظة المنتجة، والمجادلة التي هي أحسن، ولا نريد أن نصل إلى تحقيق أهدافنا عن طريق القهر والغلبة، وانتصار فريق على فريق، فيوم أن جرى النيل روافدً ونهيرات، لم يجر عن طريق التفجير النووي ولا الإعداد الذري، ولكنها قطرات الماء الرقيقة المرهفة تتوالى طرقاتها على جبال القمر الأضم، ومن حوله من الرواسي الشم، فتفتتها الهوينا، ذرة بعد ذرة، ثم تتدفق سيلاً يحمل الخصب والري والنماء، إلى كل أخدود يتقبله، وإلى كل سهل يتلقاه، ومن قال إن الإسلام قد قام على السيف وعلى المدفع فقد افتري على الله الكذب، ولكنه قام على الفهم وانتشر عن طريق الإقناع والافتناع، وتلقته الملايين من البشر بسهولةٍ ويسر، لما وجدوه فيه من عدالة وأمن وسلام، وهذا ما نريده، وهذا ما بدأناه وهذا ما بدأنا نلمس بوادره، وعمّا قريب نجني ثماره، إنما نتعثر ولكننا لا نكيد، إنما نحتمل ولكننا لا نصجر ولا نصيق، إنما نحسب ولكننا لا نشهر آلة حرب في وجه مسلم، ليقل أعداء الدعوة عنها ما يقولون، فلن نلقي إليهم بالاً، ولن نصيح السمع لالتقاط ما يقولون، ولا نلتفت إلى اتهاماتهم لأننا على الطريق سائرون، ولن تثبطنا معوقاتهم، لأننا لها متخطون ومجتازون، إنما كلمة الله على الأرض، وخلقهاؤه فيها، فما أنزل آدم من الجنة مطرودًا، ولكنه نزل تحفة الكرامة تحقيقًا لقول العلي الكبير **(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)** (البقرة:30).

إننا لا ندل على أحد، فما التعالي من خلق المسلمين، ولكنه التحدث بنعمة الله الكبرى علينا، إذ هدانا سواء السبيل، وأمرنا أن نعلن للناس فضل الله علينا **(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11))** (الضحى).

لا ندعي أستاذية

وليس في ذلك من امتيازٍ على أحد، وليس لنا فيه من جهد نادر، ولكن **(ذَلِكَ الْقَصْلُ مِنَ اللَّهِ)** (النساء: من الآية 70)، إنما لا ندعي أستاذيةً لأحد، ولكننا نحمل المصباح كما تحمله المشكاة ينير للدارسين، ويهدي الحائرين، آخذًا بيد المكفوفين، العاجزين، ليقبل الناس علينا أفواجًا، فما لذلك عندنا من اعتداد **(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي)** (الأعراف: 178)، أو ليغض الناس عنا انغضاضًا، فما لذلك عندنا من نقوص **(قُلْ اللَّهُ تَمَّ دَرْهَمٌ)** (الأنعام: من الآية 91)، من أجل هذا اعتدى علينا طلاب الدنيا، ومن أجل هذا نأمر علينا أعداء الإسلام، ومن أجل هذا جنا علينا كل من ليس في قلبه ذرة من إيمان؛ ولو أن الله أراد بهؤلاء وأولئك خيرًا، لأرهبوا السمع ولفتحوا العيون، واستمعوا إلى نداء الله الكريم **(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32))** (الأحقاف).

هذا بعض ما وعيناه في جلسات طاهرات مع إمامنا الشهيد، فهل آن للمتحمليين أن يكفوا وللمتأمريين أن ينتهوا، وللمتربصين أن يتبينوا، وللمترددين أن يحزموا فيقدموا؟! ألم يأن لقساة القلوب أن تلين قلوبهم لذكر الله وما جاءهم من الحق؟؟ ألم يأن للذين يخافون على رزقٍ أو يتوقون بشرًا إبقاءً على حياة، أن يؤمنوا بأن الأمر كله لله، ولن يقع في ملكه إلا ما يريد؟! إنني أعني بما أكتب للناس عامةً، والشباب خاصةً، فالشباب هم الذين نصرنا محمدًا عليه الصلاة والسلام، من سن الرابعة عشرة كعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وسمرة بن جندب، وابن عفران الأبرار، وعلي بن أبي طالب، وإلى سن الخامسة والعشرين كعمر بن الخطاب والزبير بن العوام وشباب المدينة الأطهار، تعالوا إلينا يا شباب، لن نحرصكم على أحد ولن نبغضكم في أحد ولن نحارب بكم أحدًا، ولكننا نجتمعكم على الخير والقوة والتقوى والفلاح، اجتمعوا علينا ليقوى بكم جانب المسلمين، لتحافظوا على هذا الدين ولتدفعوا عنه كيد الكائدين، في قولٍ طيبٍ وكلمةٍ رقيقة، وخلقٍ رفيع، وأدبٍ جم ورجولة منيعة، وثبات كالصخرة الصيخود، تترد عنها الأعاصير كلقى هزيلة، إلى دينكم يا شباب، إلى ربكم.

هذا هو نداء الإخوان المسلمين لكم، لا يريدون منكم جزاءً ولا شكورًا وليس لكم إلا الله.

